اللاجئون

قصة بقلم بيرل بوك
ترجمة سليمان موسى

كانوا يسيرون داخل العاصمة الجديدة * غرباء من بلاد بعيدة . نعم غرباء بالرغم من ان اراضيهم لم تكن تبعد سوى بضع مئات من الاميال عن هذا الشارع الذي يسيرون فيه . ولكنهم كانوا يشعرون بانهم ابتعدوا كثيراً جداً عن اراضيهم . اما عيونهم فكانت عيون جماعة انتزعوا على حين غرة وبقوة غير منظورة ، من عالمهم الذي عاشوا فيه وألفوه وحسبوه ملاذاً امينا من طوارق الحدثان . هؤلاء الذين لم يكونوا يعرفون في بلادهم سوى الطرق الريفية الوعرة والحقول ، كانوا يسيرون الآن على طريق ممهدة في العاصمة الجديدة . وكانت خطوات اقدامهم تنتقل على الرصيف النظيف ، دون ان تتعلق انظارهم بشيء من الضرائب التي لم يروها او يسمعوا بها في حياتهم قط . كانوا يمرون وكأنما يستغرقون في حلم طويل .

في هذه اللحظة كنت ترى عدة مئات منهم يمرون على الرصيف ، وكانهم لم يكونوا يلقون بالاً لاي شيء او انسان ، كذلك لم يلق احد عليهم نظرة ما . لقد كانت المدينة ملأى باللاجئين . آلاف عديدة منهم . يعيشون في مخيمات كبيرة خارج اسوار المدينة . يطعمون ما تيسر من الطعام ويلبسون ما تيسر من اللباس . وفي اية ساعة من ساعات النهار ، كنت ترى اسرابا من النساء والرجال وبعض الاطفال باسمالهم البالية يتسللون طريقهم نحو المخيمات ، فاذا تطلع احد سكان المدينة الى سرب من هذه الاسراب فلكي يقول في نفسه بمرارة متزايدة :

« لاجئون جدد — الا ينتهي قدوم هؤلاء ؟ سنموت كلنا جوعاً بينما نقدم لهم حتى القليل من الطعام »

هذه المرارة ، مرارة الخوف ، جعلت اصحاب الدكاكين الصغيرة يزعقون بخشونة وغلظة في وجوه الشحاذين الذين كانوا يتعاقبون للاستعطاء على الابواب . كما جعلت الاهلين يكثرون المساومة في اجور الخدمات التي يؤديها العمال ، تلك الاجور التي هبطت الى حد زهيد بسبب كثرة العمال وتزاحم اللاجئين للقيام بالاعمال . وهكذا اخذ عمال المدينة يلعنون هؤلاء اللاجئين الذين بدأوا يزاحمونهم على موارد رزقهم البسيط ويجرونهم معهم الى وهدة الشقاء .

فكيف يستطيع المرء ان يتطلع الى هذه المجموعة الجديدة القادمة في غبش هذا النهار الماطر الكئيب ؟ كيف يستطيع المرء ذلك بعد ان امتلأت المدينة باللاجئين ، يقرعون الابواب للاستعطاء ويتزاحمون للقيام باي عمل من الاعمال ، ثم ترى اجساد الكثيرين منهم مطروحة على زوايا الشارع في الاصباح المتجلدة وقد فارقتها الحياة ؟

ولكن هؤلاء القادمين الجدد لم يكونوا اناساً عاديين . لم يكونوا من جماعات الرعاع الفقراء الذين تتفشى بينهم المجاعة كلما غمرت الفيضانات قطراً من الاقطار . لقد كانوا اناساً يمكن ان تفاخر بهم اية امة من الامم . وكان يلاحظ انهم جاؤوا من اقليم واحد لانهم كانوا يرتدون جلابيب حيكت كلها من القطن ذي اللون الازرق الغامق ، وقد فصلت على الزي القديم البسيط — جلابيب فضفاضة ذات اردان طويلة . وكان الرجال يلبسون مآزر مطرزة ، صنع تطريزها على انماط جميلة معقدة . اما النساء فكن يلبسن عصائب على رؤوسهن من ذات القماش الازرق البسيط وكانوا ، رجالا ونساء ، ذوي قامات فارعة وبنيان متين بالرغم من ان اقدام النساء كانت صغيرة جداً . وكنت ترى بينهم قليلاً من الفتيان وقليلاً من الاولاد يجلسون في سلال معلقة على عصي فوق اكتاف آبائهم ، ولكن لم يكن هناك بنات ولا اطفال صغار . وكان كل رجل وكل فتى يحمل حزمة على كتفه ، حزمة من الفراش المتين المصنوع من القطن الازرق النظيف وكنت ترى قدراً من الحديد فوق كل حزمة فراش ، ولا شك ان هذه القدور نزعت عن المواقد حينما ايقن هؤلاء الناس ان لا مناص لهم من الرحيل . وكان مما يسترعي النظر ان تلك السلال لم تكن تحتوي على اثر من اثار الطعام ، بل لم يكن يظهر انها احتوت على طعام ما منذ عدة ايام .

ولو امعن المرء النظر جيداً في وجوه هؤلاء الناس ، لأيقن من حرمانهم الطويل . لم يكن يظهر ذلك الحرمان للنظرة العابرة الاولى ، ولكن امعان النظر في وجوههم كان يكشف عن الحقيقة المرة ، الحقيقة التي تنطق بها وجوه هؤلاء الناس الجائعين الذين يدفعهم الى الامام خيط واه من الامل والرجاء . وبالطبع لم يروا شيئاً من مناظر المدينة الغريبة لانهم كانوا اقرب الى الموت منهم الى الحياة . لم يكن بمقدور أغرب المناظر ان تثير فضولهم . كان هؤلاء ممن اقاموا في ديارهم حتى اللحظة الاخيرة . لم يغادروها الا بعد ان عضهم الجوع بنابه . وهكذا كانوا يمرون دون ان يلتفتوا الى شيء ، صامتين غرباء ، مثلهم مثل من يقبلون على الموت وهم يعرفون انهم صاروا غرباء عن الاحياء

وفي مؤخرة هذا الموكب الصامت كنت ترى شيخاً نحيفاً حنت ظهره الايام . وحتى هذا الشيخ كان يحمل سلتين معلقتين بعصا فوق كتفه . وكنت ترى في احدى السلتين حزمة الفراش الصغيرة الى جانب القدر ، بينما لم يكن يظهر ان السلة الاخرى تحتوي على شيء عدا خرقة بالية نظيفة رغم الرقع والخروق . ومع ان الحمل كان خفيفاً فان كاهل الشيخ كان ينوء به . وكان واضحاً انه لم يمارس عملا مرهقاً منذ عدة سنين . وكنت تسمع لهاثه المرتفع بينما كان يجر رجليه الى الامام . ولا ينفك بين فترة واخرى يحدق النظر ليعرف خيط جماعته الطويل حتى لا ينقطع بينه وبينهم ويتخلف عنهم . واما وجهه المفضن المعروق فقد كان ينضح بالالم والشقاء .

وفجأة احس انه لا يستطيع ان يخطو خطوة اخرى ، فوضع حمله على الارض بكثير من التمهل والحذر ، وهبط بجسمه الى جانب السلتين وقد احنى رأسه بين ركبتيه واغمض عينيه واخذت انفاسه تتصاعد بتثاقل ملحوظ . وبالرغم من ضعفه الشديد فقد تورد وجنتاه الشاحبتان قليلا . وبعد هنيهة جاء رجل رث الثياب يحمل قدراً من الحساء ، ووضع بضاعته على ركيزة بالقرب من الشيخ واخذ يصرخ مدللا عليها . ثم مر بعد ذلك رجل فاستوقفه المنظر الكئيب وهمس لنفسه بينما كان يصعد نظراته في الشيخ :

— اقسم انه لم يعد باستطاعتي ان ابذل اليوم اكثر مما بذلت ، فلم يبق معي ما ابتاع به لعائلتي طعاماً كافيا — ولكن منظر هذا الشيخ يحز في القلب .. على اية حال ساعطيه القطعة الفضية التي كسبتها اليوم وكنت انوي توفيرها الى يوم غد . لو كان ابي الشيخ حياً لكنت اعطيتها له ..

وتلمس الرجل طيات اثوابه ، واخرج من حزامه البالي قطعة من

* من مجموعة « الزوجة الاولى وقصص اخرى » للكاتبة الاميركية بيرل بوك .

النقد الصغيرة ، وبعد لحظة قصيرة من التردد والغمغمة اضاف لها قطعة نقد نحاسية اخرى .

وامتدت يد الرجل وهو يقول بلهجة عاطفية مريرة :« اليك يا والدي الشيخ . دعني اراك تأكل شيئاً من الحساء »

ورفع الشيخ رأسه ببطء شديد . وعندما رأى قطعة الفضة لم يشأ ان يمد يده وقال :

– انا لم استعطك يا سيدي . اننا نملك يا سيدي ارضاً طيبة ولم يسبق مطلقاً ان اصابتنا مثل هذه المجاعة . ولكن النهر طغى وفاض هذا العام على اراضينا ، ولم تستطع ارضنا الطيبة ان تعطي غلالها . لم يبق عندنا يا سيدي شيء من حبوب البذار . لقد التهمنا بذار الارض . طالما قلت لهم اننا نستطيع ان نلتهم البذار . ولكنهم كانوا جهلة واضطرهم الجوع لالتهام كل شيء .

وقال الرجل : « لا بد ان تأخذها » ثم رمى النقود في حجر الشيخ ومضى في سبيله وهو يتنهد .

وحرك البائع الحساء في القدر ثم قال :«ايها الشيخ ، اتريد ان تأكل شيئاً من الحساء » ؟

عندئذ تحرك الشيخ ، وتحسس حجره بلهفة حتى عثر على القطعتين ، الفضية والنحاسية ، ثم قال: « اريد صحنا صغيراً ».

وقال البائع بدهشة :«الا تستطيع ان تأكل اكثر من صحن صغير ؟»

واجاب الشيخ « انا لا اطلبه لنفسي »

وتفرس البائع في وجه الشيخ دهشاً ، ولكنه كان رجلاً بسيطاً فلم يقل اي شيء ، بل اعد الصحن المطلوب ومضى به الى الشيخ وناوله اياه ووقف ينتظر كي يرى من سيأكل الطعام .

صدر حديثاً

الهوى والشباب

في عهد الرشيد

تجد في هذا الكتاب بغداد عاصمة الدنيا في عصر الرشيد وقد جمعت بين مراكز العلم المختلفة ومنازل العبث المنوعة .

تجد بغداد وقد خرجت من هذا المزاج تبدل من تقاليدها ، وترطب من حياتها وتغرق في هواها وعبثها .

هذه الدنيا القديمة معروضة امامك في هذا الكتاب الرائع المثير .

الثمن ٢٥٥ ق.ل

منشورات

مكتبة المعارف في بيروت

ص.ب ١٧٦١ ، بيروت

صدر حديثاً

ليل ودموع وسمراء

اعترافات

للاستاذ محمد سعيد الجنيدي

منشورات دار الآداب

للتأليف والترجمة والنشر – عمان

حينئذ نهض الشيخ بصعوبة بالغة ، وحمل الصحن بيديه المرتعشتين ومضى نحو السلة الثانية ، ثم انحنى فوقها وسحب الاغطية عنها فظهر وجه صبي صغير تبدو عليه علائم النحول الشديد . واذ كانت عيناه مغمضتين فقد كان يبدو كأن الحياة قد فارقته . ورفع الشيخ رأس الصبي . وادنى طرف الصحن من فمه فتحركت شفتاه ببطء واخذ يبتلع الحساء الدافيء رويداً حتى اتى عليه . وكان الشيخ خلال هذه الفترة يدلل الصبي بصوته الخافت قائلاً:« كل يا طفلي الصغير . كل يا حبيبي . . »

وسأل البائع : اهو حفيدك ؟

واجاب الشيخ:« اجل . هو ابن ابني الوحيد . لقد غرق ابني وزوجته بينما كانا يعملان في ارضنا ، عندما فاض النهر وتحطمت السدود ».

ثم اعاد الغطاء على الصبي ببطء وحنان ، واستدار على وركيه واخذ يلحس الصحن بلسانه حتى لم يبق فيه اثر من اثار الطعام واعاد الصحن الى صاحبه كأنما تناول كفايته من الطعام .

وصرخ البائع الفقير قائلا ، وقد ادهشه ان الشيخ لم يطلب شيئاً لنفسه: « ولكن القطعة الفضية ما تزال معك ! . »

واجاب الشيخ وهو يهز رأسه:« سأستبقي هذه لشراء البذار . لقد قلت في نفسي عندما رأيتها انني سأحتفظ بها لشراء البذار . لقد اكلوا جميع الحبوب ولم يبق ما نزرع به الارض مرة اخرى».

وقال البائع وهو يهز رأسه حائراً:« لو انني لم اكن في مثل حالك من البؤس لقدمت لك صحناً دون مقابل . ولكن اعطاء طعام لمن يملك شيئاً من المال امر لا استطيع ان اقدم عليه».

وقال الشيخ :«انا لا اطلب منك يا اخي . انني اعرف انك لا تستطيع ان تفهمني ، ولكن لو كنت فلاحاً تملك الارض لعرفت ان الارض يجب ان تزرع بالبذار حتى لا تتكرر المجاعة سنة اخرى . وان افضل ما استطيع ان افعله لحفيدي هذا هو ان ابتاع شيئاً من البذار لارضنا . اجل يا اخي ، حتى لو قدر لي ان اموت ويقوم بزراعة الارض اناس آخرون سواي . ان الارض يجب ان تزرع على اية حال».

ثم رفع السلتين على كتفه ثانية وساقاه ترتعشان ، ومضى يتعثر في طريقه بينما كانت عيناه تبحثان عن رفاقه في الشارع الطويل المستقيم .

نقلها الى العربية

المفرق (الاردن) **سليمان موسى**